



تقويم تجربة الشعوب الإسلامية بعد أزمات التطاول على الثوابت

إعداد

د. عادل بن علي الشدي

الأمين العام للبرنامج العالمي للتعريف بنبي الرحمة ﷺ



الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين،
نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين... أمّا بعد:

فإن المسلمين يتحلّون بعواطف ومشاعر عالية جداً نحو مقدّساتهم،
وفي مقدمتها: دينهم ونيّهم وكتابهم. وبغض النظر عن مستوى التدين
والالتزام ما بين سابق بالخيرات، ومقتصد، وظالم لنفسه؛ فإن تلك
العاطفة تحيش بمجرد أن تُمسّ إحدى تلك المقدّسات.

وهذا، في ظاهر الأمر وحقيقته، أمر طيب ومطلوب؛ لكن المحذور
يكن في حالة عدم انضباط تلك العاطفة بحيث تؤدي إلى نتائج غير
مرضية، وهذا ما حدث في واقع الأمر عندما تعرّض رسولنا محمد ﷺ
للاستهزاء والطعن من قبل بعض وسائل الإعلام الغربية، فقد خرج
بعض المسلمين عن النهج الصحيح في الردّ على هذا العدوان.

وفي المقابل، كانت هناك ردود أفعال جيّدة ومنضبطة لم تستجب
للاستفزاز المتعسف بطريقة تؤكّد فكرة العدوّ عن الإسلام ونيّ وأتباعه،
بل سلكت مسلك الحكمة والإيجابية، فبيّنت بطلان دعاوى أولئك
الشائنين، وذلك عن طريق الحوارات والكتابات، كما سلكت طريق ردّ
الظلم بالطرق الموجهة للغربيين الماديين، وهو طريق المقاطعة
الاقتصادية.

وهكذا، فقد مرّت الأمة الإسلامية -وما زالت- بحالة من العدوان
على الثوابت جامحة، تداعت عليها أصوات كثيرة من شعوب غربية
مختلفة! فكانت تجربة جديدة نوعاً ما لسرعة انتشار نبئها، ووصوله إلى

القاصي والداني بواسطة تكنولوجيا الإعلام المعاصر.

ولمعرفة الحكم الصحيح والتصور الواضح عن هذه التجربة، كان لابدّ من تقويمها وتشخيص أعراض المرض، ومظاهر الصحة في أداء المسلمين فيها، لتكون النتائج المستخلصة هي المحدّدة لمنهج المواجهة وإستراتيجيتها؛ لأن الصراع -فيما يبدو- في تصاعد، ووتيرته في ارتفاع، خاصة وقد وصل الأمر في إحدى مراحل إلى كرسي البابوية وقمة النصرانية، وفي محاضرة يُفترض أن تكون «أكاديمية» تتطلب الكثير من الدقة والتوثيق العلمي الصحيح.

كما وصل إلى كراسي المسؤولية في دول إسلامية تطاول فيها بعض المسؤولين على حجاب المرأة المسلمة، وعدّوه مظهراً من مظاهر التخلف.

فكان لا بد من وقفة تُدرس فيها هذه الحالات من العدوان على الثوابت، والمنهج الذي يتطلبه الموقف في ردّ هذا العدوان.

وهذا لا يتأتى إلا عن طريق التمحيص والتقويم، وبهذا تبرز أهمية مثل هذه الموضوعات التي تهتم بتقويم تجربة الشعوب الإسلامية عقب أزمات التطاول على ثوابت الأمة ومقدّساتها، وهو ما عُقد هذا المؤتمر لتدارسه وبجته.

وقبل الخوض في صميم هذا الموضوع، وبعد ملاحظة بعض أوجه تلك التجربة، نخلص إلى أن مثل هذه الحالات المؤذية والمنكرة لابدّ فيها

من إستراتيجيتين:

الأولى: الوقاية منها قبل وقوعها؛ وذلك باتخاذ كافّة السبل الكفيلة بمنع وقوع مثل تلك المنكرات وأنواع العدوان، وهي سبل كثيرة لولا تفريط المسلمين فيها لما وقع - في الغالب - مثل هذا العدوان بمثل تلك الصّلافة والإصرار.

الثانية: العلاج لاستئصال مثل هذه الظواهر العدوانية، وللحدّ من سريان العدوان إلى جميع الثوابت في حال تقاعس المسلمون في علاج حالة عدوان على ثابت من الثوابت.

وهذا العلاج يكون بعد معرفة الأعراض والأسباب المفضية إليها معرفة دقيقة، تتسم بالشمول والعمق والموضوعية التي تمنع إسناد هذه الحالات إلى نظرية المؤامرة فقط، وعدم النظر إلى عيوب الذات وتقصير المسلمين.

وقد رأيتُ أن أقسّم هذا البحث المختصر إلى مقدّمة وثلاثة فصول وخاتمة، وقد اشتمل الفصل الأول على مبحثين رصدتُ فيهما أبرز الإيجابيات والسلبيات التي صاحبت تجربة الشعوب الإسلامية بعد أزمات التطاول على الثوابت.

وحوى الفصل الثاني الذي جاء في خمسة مباحث مقترحات عملية لمواجهة أزمات التطاول على الثوابت.

أما الفصل الثالث، فقد ركّز على تجربة «البرنامج العالمي للتعريف

بنبي الرحمة ﷺ، ورصد أهدافه، ومناشطه، وإنجازاته في أربعة مباحث. ولخصتُ في الخاتمة أبرز نتائج البحث جرياً على العادة المتبعة عند الباحثين.

أسأل الله عزّ وجلّ أن يجعلنا من أنصار دينه ونبيّه وكتابه الكريم، وأن يثبتنا على الحق حتى نلقاه غير مبدّلين ولا مغيّرين. وصلى الله وسلّم وبارك على نبيّنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفصل الأول

تقويم عام لتجربة الشعوب الإسلامية في أزمة التطاول على الثوابت

المبحث الأول: الإيجابيات:

أولاً: عودة كثير من المسلمين إلى التمسك بدينهم، والاعتزاز بانتمائهم،
ومحافظة على هويتهم:

إن أمة يبلغ تعدادها ملياراً وثلاثمائة مليون نسمة، أي ما يقارب
٢٣٪ من سكان العالم، ويعيش أفرادها في أكثر من ١٢٠ مجتمعاً بشرياً،
ويزيد عدد دولهم عن ٥٤ دولة^(١) هي حقيقة بأن تحترم؛ فلا شيء أخطر
على أعداء هذه الأمة المسلمة من شعور هؤلاء جميعاً بالانتماء الحقيقي إلى
دينهم، والاعتزاز الكبير بنبيهم ﷺ، والرجوع القوي إلى هويتهم، حتى
إن «صموئيل هنتنجتون» عدّ اقتناع المسلمين بتفوق ثقافتهم على الثقافة
الغربية، واعتزازهم بها هو مشكلة الغرب الحقيقية مع العالم
الإسلامي^(٢).

(١) العولمة: أرقام وحقائق، لعبد سعيد عبد إسماعيل، دار الأندلس الخضراء، ص ١٣٤.

(٢) العولمة الغربية والصحة الإسلامية، د. عبد الرحمن الزنيدى، دار إشبيلية، الرياض،

لكن التّطاول على الثّوابت أدّى إلى تحقيق نتيجة عكسية لما يريده المتطاولون، فبينما كان هدفهم إضعاف اعتزاز المسلمين بـرموزهم وزيادة انسلاخهم عن ثوابتهم، وتخويف الغرب من النبي محمد ﷺ ودينه، فقد أدّى هذا الاستفزاز والاستهداف إلى رجوع الكثيرين من مختلف شرائح المجتمع، ولا سيما رجال الأعمال ونسبة لا يستهان بها من الشباب الذين ربما فرطوا في كثير من الواجبات ووقعوا في كثير من المنكرات، ومع ذلك رأينا كيف علّقوا على سيّاراتهم عبارات النصر للنبي ﷺ، وقاطعوا بصدق المنتجات الدنماركية.

ثانياً: شعور الغرب عموماً والدنمارك على وجه الخصوص بخطورة التعرّض لثوابت المسلمين بالانتقاص:
وقد تأكّد ذلك من خلال:

أ- المواجهة السريعة لتطاول «حزب الشبيبة الدنماركي» على مقام نبينا محمد ﷺ برسوم مسيئة، تمّ عرضها على إحدى المحطّات التلفزيونية الدنماركية، حيث استنكرها رئيس الوزراء شخصياً ووصفها في مقابلة تلفزيونية (٨/١٠/٢٠٠٦) بقوله: «أدين بشدة التصرف الصادر عن أعضاء من شبيبة الحزب الدنماركي، إنه سلوك مرفوض تماماً من مجموعة صغيرة من الشباب، إن سلوكهم غير اللائق لا يمثل بأي شكل من الأشكال الطريقة التي ينظر بها الشعب الدنماركي للمسلمين والإسلام»، وهو ما لم يحدث إبان أزمة الرسوم المسيئة التي نشرتها صحيفة «يولاند

بوستن « قبلها بأشهر، وهذا يدلّ على الثمرة الإيجابية لوقف المسلمين المستنكرة للرسوم المسيئة.

ب - محاولات الحكومة من خلال بعض وزاراتها وسفرائها احتواء الأزمة واسترضاء الأمة الإسلامية، ومما يذكر في هذا الصدد أن السفير الدنماركي في الرياض سلّم دعوة من حكومة بلاده لرابطة العالم الإسلامي لتشكيل وفد من العلماء والمهتمين لبحث سبل إنهاء الأزمة وإرضاء الشعوب المسلمة، بيد أن السقف المحدود للنتائج المتوقعة حمل الرابطة على تأجيل الزيارة إلى أن تحين الظروف المناسبة.

ج - محاولات الشركات الدنماركية ورجال الأعمال فيها بذل الجهود المتواصلة لحلّ الأزمة وإرضاء الأمة الإسلامية من خلال بيانات الاعتذار، وبيان المواقف من الإسلام ونبينا محمد ﷺ وتشكيل الوفود التي تزور الدول الإسلامية، وتحاول الوصول إلى حلّ يرضي الأمة الإسلامية.

وهذه الأمور الثلاثة مجتمعة حين تؤخذ في سياقها الإيجابي المتوازن، فإنها تدل على إيجابية الموقف الشعبي للأمة الإسلامية وتأثيره في ردع محاولات التطاول التي قد يفكر البعض في الغرب في الاستمرار فيها

ثالثاً: استخدام سلاح المقاطعة الاقتصادية:

وهو سلاح فعّال يحتاج إلى حكمة وبُعد نظر، ويحتاج حين استخدامه إلى إرادة وهدف واضح. وقد ثبت استعمال هذا السلاح في حياة النبي ﷺ، وثبتت فعاليته في نصرة الدين وكف أذى الكفار والأعداء؛

ففي قصة الصحابي الجليل ثمامة بن أثال التي أخرجها البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث النبي ﷺ خيلاً قبل نجد، فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له: ثمامة بن أثال، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي ﷺ فقال: «ما عندك يا ثمامة؟». فقال: عندي خير يا محمد، إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكرك، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت.

فترك حتى كان الغد فقال: «ما عندك يا ثمامة؟»، فقال: ما قلت لك؛ إن تنعم تنعم على شاكرك، فتركه حتى كان بعد الغد. فقال: «ما عندك يا ثمامة؟»، فقال: عندي ما قلت لك. فقال: «أطلقوا ثمامة».

فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل، ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. يا محمد، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلي من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلي. والله ما كان من دين أبغض إلي من دينك، فأصبح دينك أحب دين إلي. والله ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد إلي. وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى؟ فبشره رسول الله ﷺ، وأمره أن يعتمر.

فلما قدم مكة قال له قائل: صبوت؟ قال: لا، ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ﷺ، ولا والله لا يأتكم من الإمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي ﷺ.

هذه رواية البخاري ومسلم.

وذكر ابن هشام أن ثمامة (خرج إلى اليمامة، فمنعهم أن يحملوا إلى مكة شيئاً. فكتبوا إلى رسول الله ﷺ: إنك تأمر بصلة الرحم، وإنك قد قطعت أرحامنا، وقد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع، فكتب رسول الله ﷺ إليه أن يخلي بينهم وبين الحمل)^(١).

هكذا فمن إيجابيات ردّة فعل المسلمين على ما حدث بمقاطعة جادة للمنتجات الدنماركية، تأثرت فيها صادراتها إلى منطقة الشرق الأوسط بشكل كبير، حيث انخفضت بنسبة ٣٥%^(٢)، وهو رقم في عالم الاقتصاد له أهميته.

رابعاً: زيادة جهود التعريف بالنبي ﷺ:

صحب أزمة التطاول على الثوابت الإسلامية طفرة غير مسبقة في إنتاج الكتب والترجمات، والنشرات، والمقالات، والبرامج الإسلامية التي تعرّف بني الرحمة ﷺ وما اشتملت عليه رسالته من معاني السماحة والعدل وحبّ الخير للبشرية، والوفاء بالعهود وحسن الخلق، وتزامن ذلك مع تنظيم العديد من المؤتمرات والندوات والمحاضرات في الغرب خصوصاً والعالم عموماً، وهو أمر لم يكن ليحدث لولا هذا الاستهداف.

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٥٣/٦.

(٢) الصندي تايمز ١٦/٩/٢٠٠٦م.

وقد نتج عن هذه الجهود إسلام أعداد لا يستهان بها من الغربيين وغيرهم، وتصحيح الصورة المغلوطة عن النبي ﷺ في أذهان أعداد كبيرة من غير المسلمين.

خامساً: الانتقال من دائرة الكلام والشجب إلى دائرة الفعل والحركة:

وهذا تطور فريد حدث عقب أزمة الرسوم الدغماركية، حيث وقف المسلمون وقفة فاجأت الغربيين؛ فخلال العقود الأخيرة لم يزد أكثر المسلمين على الكلام الحماسي ورد الفعل المتهور، لكن في هذه التجربة اختلف الأمر وتغير سلوك المسلمين تغيراً نوعياً وإيجابياً، فقد هبّ المسلمون كلُّ بما يستطيعه في مواقف عملية تركّزت في معظمها على الحُصْن على نصرة النبي ﷺ على أكثر من صعيد من طرف إعلاميين، وأدباء، وأصحاب منديات على الشبكة العالمية، ومن عباراتهم في هذا الشأن: جاهد في الدفاع عن النبي ﷺ ولو بأقلّ القليل، ولا تقف تنظر وتقول ماذا أفعل.. حاول إرسال رسالة استنكارية على الذي حدث... شارك معنا في حملة نصرة الحبيب المصطفى ﷺ...

من الطرائف ذات المغزى في هذا الصدد، أن محافظة «دير الزور» السورية أقامت مسابقة شعرية بعنوان: «نحري دون نحرك يا رسول الله»، فكان الفائز الأوّل في المسابقة شاعرٌ نصرانيٌّ اسمه: جاك صبري الشماس!!

سادساً: تأثير موقف المسلمين على أكبر منظمة دولية وهي منظمة الأمم المتحدة:

فقد نشرت «الفايننشال تايمز»^(١) تقريراً حول الرسوم، كتبه «مارك تيرنر» من نيويورك وأشار إلى أن الجدل حول الرسوم المسيئة انتقل إلى

(١) الصادرة يوم ١٠/٢/٢٠٠٦م.

مقر الأمم المتحدة، وأنه بات يعرقل تشكيل مجلس جديد لحقوق الإنسان تابع للمنظمة الدولية.

وجاء في التقرير: إن منظمة المؤتمر الإسلامي طالبت بإضافة فقرات تطالب المجلس الجديد بإدانة كل أشكال التمييز غير المقبول، وزيادة الكراهية الناجمة عن أي عمل ضد الأديان والأنبياء والمعتقدات. وتدعو منظمة المؤتمر الإسلامي إلى إضافة فقرتين لن يكون لهما قوة القانون، وفقرة ثالثة تحظى بقوة القانون.

سابعاً: أن هذه الإساءة لم تصدر عن علماء أو فلاسفة أو أدباء مرموقين، أو حتى عن رجال الدين النصارى، ما عدا ما صدر عن البابا الحالي «بنيدكت السادس عشر» الذي بانغزاليته وعدم خوضه غمار تجربة حوار واحدة مع مسلم مثلاً، كما أن استشهاده في «محاضرته» كان من كلام ملك بيزنطي متغرطس لم ينبج من غطرسته حتى النصارى. وما زال مفكّرون من شتى الديانات يحكمون على كلام البابا ويصفونه بـ «الانزلاق الخطير والقاتل»^(١).

وفي مقابل هذا، نجد المدح والثناء اللذين ملأ عشرات الصفحات في المؤلفات الغربية والشرقية من عشرات السنين، تثني على نبينا محمد ﷺ، وتظهر إعجابها بل حبّها لهذا الرسول الكريم ﷺ^(٢).

(٢) في برنامج بين السطور في قناة m٢ المغربية، جمعت مفكرين وكتاباً مسلمين ونصارى ويهوداً.
(١) كُتب في هذا عشرات الصفحات في الكتب، والمجلات والصحف، ومواقع الأنترنت، منها على سبيل المثال: كتاب: «رَبِّحْتُ مُحَمَّدًا ولم أخسر المسيح»

ثامناً: أن مسلمي الغرب هم أكثر من تفاعل مع هذه الحملات الرافضة لهذه الإساءات رغم خطورة وضعهم هناك في الغرب وحساسيته؛ وهذا شيء يطمئن من حيث بقاء ولاء هؤلاء المسلمين للإسلام ومصادره ورموزه.

المبحث الثاني: السلبات:

غير أن هذه الآثار الإيجابية قد تعكّر صفوها بما صاحبها من سلبات ونقائص لم تخدم الهدف المقدّس من هذه الهبة الإسلامية العارمة ضد العدوان، ومن تلك السلبات التي ينبغي أن نعمل على تلافيها ما يلي:

أولاً: غياب المرجعيات الضابطة لتصرفات الشعوب في الأزمات:

إن من أخطر ما يعاني منه المسلمون عموماً، وأهل السنة خصوصاً في العصر الحديث، غياب المرجعية التي يصدر الناس عن رأيها، وتوجّه مسار الشعوب في الأزمات، وتضمن بإذن الله ترشيد ردّات الفعل وإبقائها متوازنة انطلاقاً من قول الله تعالى: {وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ} [النساء: ٨٣].

لمؤلفه د. عبد المعطي الدالاتي، وكتاب: «قالوا عن الإسلام» لمؤلفه د. عماد الدين خليل، والموقع الإلكتروني: www.islamtomorrow.com للمسلم الأمريكي المهتدي يوسف إستس... وغيرها.

وقد اتضح هذا الأمر جلياً إبان أزمة التطاول على مقام النبي محمد ﷺ، فلا هيئات كبار العلماء في الدول الإسلامية أخذت زمام المبادرة، ولا جبهة علماء المسلمين التي أنشئت حديثاً حظيت بالقبول لتكون مرجعاً للشعوب الإسلامية في هذه الأزمة، ولا المنظمات الإسلامية الشعبية، ولا سيما رابطة العالم الإسلامي أعطيت دورها الطبيعي لتقوم بواجبها المفترض أن تؤديه في قيادة الشعوب في هذه الأزمة.

فكان من نتيجة ذلك تفاوت ردّات الفعل، وبرز التجاوزات غير المقبولة التي وقعت في بعض الأحيان، وعدم القدرة على قراءة الأحداث المستجدة، واختيار المواقف المناسبة إزاءها، بل لقد أدّى هذا الواقع إلى استفراد البعض بمواقف ربما أثّرت على تماسك ردّة فعل الأمة نتيجة غياب المرجعية الضابطة لتصرفات الشعوب المسلمة في هذه الأزمة.

ثانياً: تحوّل المقاطعة إلى غاية:

فقد دفع الحماس البعض إلى تحويل المقاطعة الاقتصادية - التي هي وسيلة من عدّة وسائل لنصرة النبي ﷺ، وإنكار منكر التطاول عليه - إلى غاية لا محيد عنها مهما كانت الظروف والمتغيرات، ودون تفريق بين المتتمين إلى الطرف والطرف الآخر، إذ المعتذر غير المصرّ، والذي لم يفعل شيئاً ليس كالمسيء، وهذا يؤدي إلى أمرين:

أولهما: إشعار الطرف الآخر بأن لا فائدة من محاولات استرضاء المسلمين والاعتذار لهم، بدليل أن الذين اعتذروا لم يستفيدوا شيئاً.

الثاني: اتهام المسلمين الذين اجتهدوا في أمر المقاطعة في نياتهم ومواقفهم، وربما الغلظة عليهم، وهو أمر يفرّق الصف في وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى وحدة الكلمة.

وقد لوحظ على قلة ممن دعوا إلى المقاطعة بعض المزالق، ومنها^(١):

١- الغلو والتعدي: على المسلمين أو غيرهم . فبعض الخطباء يصرح أو يلمح بأن من اشترى منتجا ديمقيا فليتهم دينه !! مثل هذا الحكم العام باطل ولا يصح إطلاقه . وبعض المتظاهرين في الدول الإسلامية هددوا بقتل الأجانب وهدم الكنائس.

٢- توسيع دائرة المواجهة: في الداخل أو في الخارج . فبعض المقالات لفتت الأنظار لفتا ضاراً في هذه المرحلة، فأخذ الكاتب ينبه إلى انحراف بعض المذاهب في سبهم صحابة رسول الله وأزواجه رضوان الله عليهم، مطالباً بأن نوسع دائرة المعركة. والحق أن أمثال هذه المقالات تمارس بلا قصد من أصحابها دور (المرايا المتقابلة) فتشتت المواجهة في وقت هي أحوج ما تكون فيه إلى التركيز على جهة محددة . وهنا لا أجد أبلغ من التذكير بقوله ﷺ: «إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى»، وقول العرب: «ليس الري عن ارتشاف».

(١) عن مقالة بعنوان: «أضواء على المقاطعة»، بقلم خالد قحنون، على موقع:

ثالثاً: عدم وجود برامج عملية دائمة لمواجهة التطاول على الرموز الإسلامية:

غلب الجانب العاطفي على ردّات فعل الشعوب الإسلامية، فكان الحماس طاغياً في بدايات الأزمة المتعلقة بالرسوم الكاريكاتورية ثم خفّت وتيرة هذا الحماس تدريجياً، ولا أقصد هنا التقليل من أهمية ردّات الفعل الآنية أو العاطفة والحماس النابعين من صدق المشاعر الإيمانية، فكل ذلك مطلوب؛ لكن السليبي هو الاقتصار على ذلك وعدم البناء عليه للوصول إلى برامج عملية هادفة يمتدّ أثرها وتستمرّ نشاطاتها سعياً إلى التعريف بالإسلام ونبى الإسلام وكتاب الله عزّ وجلّ، والقيم والمبادئ التي اشتملت عليها رسالة النبي ﷺ.

لقد كان من اليسير في فورة الحماس المصاحب لأزمات التطاول تأسيس مجموعة من البرامج والمراكز والمشاريع التي ترصد وتحلّل وتعمل على مواجهة هذا التطاول مستقبلاً بنشاطات وقائية وعلاجية، وكان من اليسير في ذلك الوقت جمع الأموال وحشد الطاقات، وإقناع الحكومات، ولكن هل كل ذلك متيسر الآن؟ وبمثل ما كان عليه في ذلك الوقت؟ فإنني أشك في ذلك كثيراً.

وحين لا يكون لدينا برامج عملية ودائمة فإننا سنخسر كثيراً، ونضطر دائماً إلى القيام بدور مطفئ الحرائق ومواجه الأزمات.

رابعاً: التهور والاندفاع والتصرفات غير المنضبطة:

وقد اشتملت على التخريب والتدمير والحرق لبعض السفارات،

ولا سيما السفارتين الدنماركيتين في دمشق وبيروت. وقد طالبت حكومة الدنمارك بتحمل سورية ولبنان مسؤولية إعادة إصلاح المباني..

كما اشتملت تلك التصرفات رفع شعارات التهديد بالذبح والقتل، والتفجير كتفجيرات ٩/ ١١ في نيويورك، و٧/ ٧ في لندن.

لقد كان مشهد حرق أعلام الدول الأوروبية ولا سيما الدنمارك مسيئاً لموقف المسلمين، مؤثراً جداً على مواقف الشعوب الأوروبية من أزمات التطاول، ولسان حالهم يقول: إذا كانت قلة سفية لدينا أساءت إلى رموزكم، فما بال حشود كبيرة لديكم تستهين برموز سيادتنا؟ وهنا يتعين النظر في مثل هذه التصرفات بمعياريين:

أولهما - وهو أهمهما - : المعيار الشرعي ؛ فهل يجوز مثل هذه التصرفات في دين الله؟ أم أنها من قبيل الاعتداء المنهي عنه، قال تعالى: {وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُواْ أَعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ} [المائدة: ٨]، وقال تعالى: {وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ} الآية [المائدة: ٢] .

وثانيهما: هل هذه التصرفات تحقق المصلحة للإسلام والمسلمين؟ وهل المفاصد المترتبة عليها توازي المصالح التي يظنها البعض متحققة بها؟

من حق العقلاء أن يتساءلوا عن جدوى ردّات الفعل غير المحسوبة التي لا تنكأ عدوّاً ولا تعيد حقاً، وهي مع هذا تسيء إلى قضايا المسلمين حين ينجح سفهاء الأعداء في جرّ بعض المسلمين إلى مواجهات

لم يختار المسلمون مكانها ولا زمانها ولا طريقها.

خامساً: التوجّه للداخل ومخاطبة النفس:

لاحظتُ أن كثيراً من الكتب والمقالات والنشرات والمؤتمرات والندوات والبرامج الإعلامية تمّ تنفيذها باللغة العربية، وتمّ توجيه الخطاب فيها للمسلمين، كما تمّ توزيعها وإقامتها في البلاد الإسلامية.

ولستُ هنا أنكر أهمية توعية المسلمين بحقوق النبي ﷺ وخطورة التطاول على ثوابت الإسلام، لكنني أنتقد الاستغراق في مخاطبة الذات والاقتصار على ذلك، واستنزاف أموال الراغبين في نصرة النبي ﷺ ودينه، وجهود الأفراد والهيئات والجمعيات، مع الشعور بأداء الواجب! فيما يتعطّش العالم ولا سيما الغرب إلى برامج عملية تعرّفهم بنبي الرحمة ﷺ ورسالته. فمن المؤسف أن معظم هذه الجهود لم تصل إلي غير المسلمين عموماً، والغربيين على وجه الخصوص، بلغاتهم وبأسلوبهم الذي يفهمونه، وبما يعالج المشكلات والتصورات الخاطئة المكرسة في أذهانهم عن الإسلام ونبي الإسلام ﷺ.

سادساً: ضعف التنسيق أو غيابه كليةً بين المؤسسات الإسلامية العلمية والفكرية والدعوية والخيرية، بل قد تصل تلك الحالة من عدم التنسيق إلى حالة من التضارب والتناقض في المواقف.

وقد اتضح ذلك جلياً خلال أزمة الرسوم المسيئة في بعض الصحف الأوروبية، فمع أن الكل كان يدعو للتنسيق نظرياً، لكن الواقع أثبت

تفرّد البعض بزيارات ولقاءات ومواقف ومؤتمرات يأخذ من خلالها زمام المبادرة، ويعطي للطرف الآخر رسائل خاطئة عن تلاشي الغضبة الإسلامية، وانطفاء جذوتها، مما أطال من أمد المواجهة وزاد في تصلّب بعض الأطراف الفاعلة لاسيما في الحكومة الدنماركية في الأزمة، وقريب من ذلك ما يحدث من تكرار الجهود في طباعة الكتب وترجمتها، وإقامة المؤتمرات والندوات، وبناء المواقع الإلكترونية لجهات عديدة حول موضوع واحد، وربما كان أداء الجميع ضعيفاً ومجهداً ومستنزفاً للأوقات والأموال، مع إمكانية تلافي كثير من ذلك الخلل بإنشاء وحدة للتنسيق بين الجهود المبذولة في هذا الصدد.

غير أن الغلو في هذا الجانب معطل للعمل بالكلية، فكم من الجهات والأفراد ظلّوا واقفين متفرّجين لا يعملون بانتظار التنسيق؛ والتوازن هو المطلوب في هذا لأمر، فلا بدّ من العمل وبذل الجهد مع السعي إلى التنسيق بين الجهات العاملة.

وفي رأيي أن تصدي بعض مشاهير العلماء والدعاة لأعمال نصرّة النبي ﷺ وما يقتضيه ذلك من جهد ضخم ومتابعة دقيقة لقضية على قدر كبير من الأهمية رغم انشغالهم بالعديد من المسؤوليات العلمية والدعوية، وتوليهم لكثير من الأعمال الإعلامية والتعليمية.. هو خطأ وقع وأثر علي مسيرة النصرّة العملية للنبي ﷺ، ومشاريعها التي يجب الإسراع بإقامتها؛ وكان منشأ هذا الخطأ هو ضعف التنسيق وعدم الوصول في الوقت المناسب إلى هؤلاء العلماء والدعاة والمشاهير ذوي

الانشغالات المتعددة، لعرض المشاريع العملية والبرامج الواقعية للتعريف والنصرة عليهم، وإشعارهم بأن في الأمة من الطاقات المؤهلة والكوادر القادرة من يستطيع أن يكفيهم عناء إضافة هذا العمل المضني إلى أعمالهم مع بقائهم ضمن المشرفين والمتابعين لهذه البرامج دون دخول في تفاصيل أعمالها.

سابعاً: عدم وجود مؤسسات قانونية إسلامية للدفاع عن قضايا المسلمين في المحافل الدولية:

بالرغم من امتلاء الدول العربية - مثلاً - بأعداد هائلة من النقابات المهنية، ك نقابة المحامين، والأدباء... وغيرها من النقابات التي عليها مسؤولية عظيمة في تكريس بعض نشاطها لنصرة الإسلام ونبى الإسلام ﷺ.

الفصل الثاني

اقتراحات عملية

لاشكّ أن نجاح أي فكرة نظرية هو في التطبيق العملي لها؛ ولهذا فإننا بالنظر إلى سلبيات موقف المسلمين وإيجابياته من موضوع الهجوم على الثوابت، فإننا لابدّ أن نخلص إلى خطوات وإجراءات عملية ناجعة تكفل الردّ الملائم على ذلك الهجوم، بما يحقق الاحترام الواجب لثوابتنا ومعتقداتنا.

وحتى يكون تصورنا للخطوات العملية صحيحاً، يجب أن ينبثق من واقع الأمة الإسلامية وتجربتها في هذه المحنة العالمية، فنضع الحلول والتصورات العملية التي تنفي السلبيات وتبعدها، وتثبت الإيجابيات وترسخها بما آتته من ثمار طيبة في تلك التجربة.

فمن الخطوات العملية التي نرى العمل عليها في مثل هذه الحالات ما يلي:

• المبحث الأول: الحاجة إلى برامج دائمة ومستمرة:

إنّ ما يقوم به المسلمون في موضوع نصرته النبي ﷺ هو من صميم الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي من صميم وظيفة هذه الأمة المباركة يقول الله تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران: ١١٠]، وقال تعالى: {وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ

عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [آل عمران: ١٠٤].

فهذه وظيفة دائمة للأمة لا يمكن أن تتخلى عنها، وهي المقوم الأساسي لخيريتها وتميزها بين الأمم، فلا يمكن أن تستبدلها بوظيفة أخرى لأنها بذلك تكون قد فقدت هذه المكانة التي اختارها الله لها، وإن الأمم - في كل زمان - لتبذل الغالي والنفيس لتتبوأ المكانة المرموقة التي تحقق لها الهيبة والاحترام بين الأمم، ولا تنال ذلك إلا بالمعاناة الشديدة والخسائر الفادحة، ثم سرعان ما تزول تلك الأمة أو تلك، لكن أمة الإسلام منحها الله عزّ وجلّ أسباب السيادة والكرامة دون علوّ في الأرض، فسادت مدة طويلة من الزمن، وأعظم تلك الأسباب: كتاب ربها وسنة نبيها.

فالأمة - ممثلة في أولى الأمر فيها: العلماء والحكّام - مطالبة أن تجعل موضوع الذود عن حياض الدين وبيضته، خياراً إستراتيجياً (بلغة العصر) فتربط مصيرها بمصيره، فلا تخلي بنود برامجها المتنوعة منه.

فالحاجة تكمن في البرامج الدائمة التي لا ترتبط بظرف معيّن، وإن كانت لا تهمل أي ظرف فتحدّد نوعية التعامل معه، حيث يعتبر إذ ذاك من النوازل التي تُقدّر بقدرها، ولا يخفى أن ديمومة هذه البرامج تحتاج إلى جهود عظيمة على أكثر من صعيد:

- صعيد التخطيط: المناهج، الأهداف، الوسائل.

- صعيد الكفاءات العلمية والمالية.

- صعيد التنفيذ والمتابعة المستمرة والصارمة.

وهذا الموضوع مهم جداً على قدر أهمية غايته والهدف منه، ولذلك أكتفي بهذه الإشارة لعدم تحمل هذه الورقة لتفصيل أكثر، وحتى لا نهمل بقية المقترحات، على أن يخصّ هذا الموضوع بالدراسات الطويلة والمعقدة؛ لأنه الأساس في هذا العمل برمته.

• المبحث الثاني: التعريف بالنبي ﷺ وأهميته في سلّم النصر:

لا يختلف اثنان في كون الجهل بشخصية النبي محمد ﷺ هو من أعظم أسباب التطاول عليه^(١)، والتاريخ القديم والحديث يؤكد هذه الحقيقة من زمن النبوة إلى الوقت الحاضر، فكم معادٍ للنبي ﷺ بنى موقفه ذاك على ما سمعه من أعداء النبي ﷺ، فلما رآه وسمعه لم يشك لحظة في صدقه وعظمة شخصيته، (فإن الناظر عندما يتحقق من أحواله وصفاته على ما هي عليه - دون تشويه، أو افتراء، أو تزييف - مع تجرّده من الهوى والتعصب، يقطع بعقله أن من هذا حاله ووصفه لا يمكن أن يكون كذاباً، ويوقن أنه صادق فيما يدّعيه من إرسال الله له، ونزول الوحي عليه)^(٢).

(١) وهذا لا يعني بتاتاً إغفال عامل الحقد التاريخي الذي شكّل علاقة الغرب المسيحي مع الشرق الإسلامي.

(٢) الأدلة العقلية النقلية على أصول الاعتقاد، للدكتور سعود العريفي (ص ٥٠٥). دار عالم الفوائد، مكة. ط ١، ١٤١٩هـ.

وهذه أمثلة على تصديق من رأى النبي ﷺ من أول وهلة وبمجرد رؤية نور وجهه الساطع بالحق والحقيقة:

فقد روى الترمذي ^(١) أن عبد الله بن سلام - وكان يهودياً - قال: «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جئتُ لأنظر إليه، فلما استبثت وجهه عرفتُ أن وجهه ليس بوجه كذاب».

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أن ضماداً قدم مكة، وكان من أزد شنوءة وكان يرقى من هذه الريح، فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون: إن محمداً مجنون. فقال: لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي. قال: فلقيه، فقال: يا محمد، إني أرقى من هذه الريح، وإن الله يشفي على يدي من يشاء، فهل لك؟

فقال رسول الله ﷺ: «إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله. أما بعد.

قال: فقال: أعد علي كلماتك هؤلاء، فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات. قال: فقال: لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت كلمات مثل هؤلاء، ولقد بلغن ناعوس البحر (أي قعره الأقصى). قال: فقال: هات يدك أبايعك على الإسلام.

(٣) في سننه، كتاب صفة القيامة والرفائق، باب رقم ٢، (٤/٥٦٢-٥٦٣ برقم ٢٤٨٥)، وقال: حديث صحيح.

قال: فبايعه. فقال رسول الله ﷺ: وعلى قومك؟ قال: وعلى قومي^(١). ومثل هذا قصة إسلام ثمامة بن أثال رضي الله عنه، وهي في الصحيحين. وقصص المهتدين المعاصرين وغيرهم مليئة بمثل هذا الانبهار والإعجاب بشخصية هذا النبي ﷺ، ولهذا الموضوع مقام آخر كذلك، وإنما هي إشارات تؤيد فكرة كون التعريف بالنبي محمد ﷺ، نبي الرحمة، هو من أهم المداخل لنصرته، بنصرة دينه ودخول الناس فيه بدل شتمه والاستهزاء به، وهذه حدود مهمتنا نحن المسلمين، والهداية بيد الله تعالى وحده.

ومما يؤيد هذا الموضوع (أي التعريف بالنبي ﷺ) ما جاء في تصريحات بعض الكتاب الغربيين عقب فتنة الرسوم الدنماركية، ومن ذلك:

- قول جون كايسي في صحيفة «الصندي تلغراف»^(٢): «إن الرسوم الكاريكاتورية الدنماركية التي سببت هذا القدر من الاحتجاجات، ناجمة عن جهل الغرب بالإسلام».

- وأضاف: «مشكلة تلك الرسوم أنها تنم عن الحماقة، كما أنها تقوم على جهل تاريخي، وهي بالتالي تدل على ذوق فظيع».

- وأضاف: «نعلم جميعاً أن الإسلام يأمر بالجهاد، وذلك قد يعني إما الجهاد الروحي أو القتال الفعلي من أجل الدين. أما الافتراض، كما

(١) أخرجه مسلم، في الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة (٢/٥٩٣ برقم ٨٦٨).

(٢) الصادرة يوم ٥/٢/٢٠٠٦م.

افتترضت الصحيفة الدنماركية، أن الإسلام هو لذلك دين مكرس للإرهاب، فهو افتراض يماثل في سخافته افتراض أن المسيحية مكرسة للغزو والقمع والقتل بسبب الحملات الصليبية ومحاكم التفتيش وطرده اليهود والمسلمين من إسبانيا (الأندلس).

- ويقول «روبرت فيسك»: «إن أخطر ما في الأمر هو أن تلك الرسوم صورت النبي محمدًا ﷺ بصورة العنف على الشكل الذي يصور به بن لادن، وأعطت صورة عن الإسلام بأنه دين عنف، والأمر غير ذلك. إلا إذا كنا نريد أن نجعله كذلك»^(١).

• المبحث الثالث: تبني إستراتيجية الحوار بين الحضارات:

أصل تبني هذه الإستراتيجية هو قول الله تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [النحل: ١٢٥]، وقوله تعالى: {وَلَا تُجَدِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [العنكبوت: ٤٦]، وقوله تعالى: {قُلْ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ} [آل عمران: ٦٤].

من أهم الموضوعات التي يجب مناقشتها لدرء العدوان، وذلك بنسف احتجاج المعتدين في الاعتداء على الثوابت هو: «حرية التعبير» في وسائل الإعلام خاصة، وهناك عدّة مداخل لهذا الموضوع بناءً على

(١) صحيفة «الأندبندنت» الصادرة يوم ٢٠٠٦/٢/٤م.

نوع استقراء للوقائع التاريخية والمنطقية والثقافية، وبتتبع هذه المداخل سجلتُ ما يلي:

١- ضرورة احترام القراء وعدم إيذاء مشاعرهم. وهذا من حق القراء. فقد جاء في افتتاحية صحيفة «الجارديان»^(١) إن حرية التعبير لا تعني بأي حال من الأحوال وجوب الإساءة للمشاعر، أو ضرورة تجاهل الحساسيات العقدية. وإذا كان تمسكنا بحرية التعبير يكتسي أهمية محققة، فإن وقوفنا ضد العنصرية ينبغي ألا يقل أهمية عنه.

٢- لماذا يقوم الغرب ضدّ تصريحات متطرّفة لـ «أئمة مساجد» مسلمين - نحن لا نقرأها -، ويلزم الصمت أو يؤيد من يعتدي على الثوابت الإسلامية؟

٣- الإعلام الغربي (الأمريكي والأوروبي) يلتزم عملياً بخطوط حمراء لا يعتدي عليها بدعوى «حرية التعبير» في موضوعات كثيرة، أشهرها: محرقة اليهود في عهد النازية وهو ما يسمى بـ «الهولوكست».

علّق الصحفي «سيمون جينكينز» الكاتب في صحيفة «الصندي تايمز» بضرب مثلٍ بالبريطانيين فقال: «إنه رغم موقفهم الخشن تجاه الدين، إلا أنه ما من جريدة يمكن أن تسمح لرسام كاريكاتور بأن يصوّر المسيح (عليه السلام) وهو يقوم بإسقاط قنابل عنقودية، ويسخر من «المحرقة» أو «الهولوكوست»^(٢).

(٢) الصادرة يوم ٤/٢/٢٠٠٦م.

(١) صحيفة «الصندي تايمز» الصادرة يوم ٥/٢/٢٠٠٦م.

٤- إثارة موضوع «حرية التعبير» من طرف كُتاب في صحف ذائعة الصيت، مثل:

عنوان: «هذه الرسوم الكاريكاتورية لا تدافع عن حرية التعبير بل تهددها» في صحيفة «الصندي تايمز»^(١)، إلى عناوين: «الحرية في الكلام والحرية في إثارة الغضب» في صحيفة «الإنديبندنت»^(٣)، وعنوان: «هذه حماقة وليست صراع حضارات» في «الصندي تلغراف»^(٣)، وغيرها من الصحف الأخرى، طغى على المقالات المكتوبة الجدل الدائر حول حدود حرية التعبير، وإن كان من حق شخص أو جهة الانتقاص من أو احتقار معتقدات أو مقدسات أتباع دين ما تحت مسوغ حرية التعبير. ورغم إعلان جميع من كتب تلك المقالات التمسك بحرية التعبير، إلا أن غالبيتهم انتقدوا إساءة استخدامها على النحو الذي تصرف به بعض الصحف الأوروبية.

٥- ردّ فعل المسلمين معقول؛ لأن المساس بالقيم مرفوض، ولو كانت تلك القيم خاصة بمجتمع واحد فقط.

٦- هل من تعاليم المسيحية الطعن والقدح في الأنبياء والديانات؟ فإن مجلة نرويجية نشرت الرسوم المسيئة وقالت بأنها تتبنى القيم المسيحية!!، قال الكاتب «أندرياس ويتام سميث» في صحيفة «الأنديبندنت»^(٢):

(٢) كلها صادرة يوم ٥/٢/٢٠٠٦م.

(٣) الصادرة يوم ٦/٢/٢٠٠٦م.

«بالتأكيد، كان يتعين على مجلة تتبنى القيم المسيحية أن تحترم المقدسات بدلاً من الاستهزاء بمؤسس دين رئيسي».

• المبحث الرابع: أخذ زمام المبادرة في مواجهة التطاول والحيولة دون ركوب موجة الاستنكار من طرف جهات مشبوهة أو ذات أغراض سياسية:

إن التأخر عن استلام زمام المبادرة من طرف القيادات الإسلامية العلمية والفكرية، ممن تثق الأمة في علمهم وخبرتهم وتوازنهم، وقبل ذلك في صدق توجهاتهم لتحقيق مصالح الإسلام والمسلمين، إن حدوث مثل هذا التقصير له عواقبه الوخيمة على تلك المصالح المعتبرة شرعاً ونظراً، والدليل على خطورته واقع الأمة وقضاياها المصيرية الدينية والدنيوية، فتارة تهاجم رموز الأمة ومقدساتها، وأخرى أراضيتها وحرماتها، وأخرى رجالاتها وقادتها... ونركز في هذه العجالة على ثلاث جهات هي - حسب التتبع -:

١- أولاً الغلاة والمتطرفون في طرحهم الفكري، سواء كانوا من التكفيريين، أو من أهل التخريب والتدمير، والاعتيالات:

مثال ذلك: تهديد تنظيم القاعدة بالقيام بأعمال انتقامية في أوروبا تشمل التفجير والاعتيالات، وكخطب بعض الغلاة في مساجد بريطانيا، وكرفع شعارات أثناء المظاهرات فيها التهديد بقطع رؤوس الكفار، وتوعد

أوروبا بـ ٩/١١ (أي أحداث تفجيرات نيويورك)، و٧/٧ (أي أحداث التفجير في أنفاق مترو لندن).

٢- الحكومات التي لها مصالح سياسية من الموقف:

- مثال ذلك موقف: الحكومة السورية وصراعها مع الغرب، ومحاولة تخفيف الضَّغط عنها، والتلويح بأنها تملك تحريك جزء من الأمة في أعمال مناهضة بل مضرّة بمصالح الغرب، أو التسبب في عدم استقرار مناطق نفوذ الغربيين في المنطقة العربية.

ويرى بعض المراقبين أن الاعتداء على السفارة الدنماركية في دمشق وفي لبنان تم بإيعاز وتحريض من الحكومة السورية وأعوانها في لبنان، الأمر الذي شوّه -ولو جزئياً- موقف الأمة الإسلامية من عدوان التطاول على ثوابتها.

٣- قيادات الفرق المبتدعة: الذين يحسنون استغلال مثل هذه الفرص دون أن يفعلوا شيئاً في الواقع:

- مثال ذلك تناقض موقف حزب الله، إصرار بعض الصحف الإيرانية على الاستفزاز غير المبرر.

مقارنة بين تصعيد حزب الله للموقف إزاء الرسوم الدنماركية من خلال المظاهرات والمسيرات وخطب القيادات، واستخدامها سلاحاً سياسياً ضاغطاً على الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوروبي لتحقيق مصالح الحزب وحلفائه، وفي المقابل التغاضي عن تصريحات

بابا الفاتيكان بنيدكت السادس عشر، رغم أنها أخطر بالنظر إلى مصدرها، ولكن مراعاة الحليف الماروني (ميشيل عون) وتياره (الوطني الحر) - كما يسمى - دفع الحزب إلى تلطيف نبرة النقد لتصريحات البابا، وعدم تسيير المظاهرات، وعدم استخدام سلاح الخطب والشعارات خدمة لمصالح سياسية وتحالفات مشبوهة.

كما أن الحركات الاستفزازية التي تقوم بها صحف إيرانية - بمباركة الحكومة الإيرانية - كالدعوة إلى مسابقة كاريكاتورية عن « الهولوكوست»، هذه الحركات هي في الحقيقة أبرزت عدواً جديداً وخصماً إضافياً في أزمة التطاول على نبي الرحمة ﷺ، وهم اليهود الذين لم يسيروا في ركاب الغرب في هذه الأزمة.

وهكذا، فإن المسلمين السنة الذين هدوا إلى منهج الكتاب والسنة إذا لم يشغلوا هذه الوظائف، ويبادروا إلى مواجهة الفتن بالعمل الجاد المنسق والمتواصل، فإن غيرهم سيشغلها ويستغلها أبشع استغلال.

• المبحث الخامس: إسناد الدور الأكبر في مواجهة التطاول للمواطنين المسلمين في الغرب:

لقد أثبتت التجربة أن المواطنين المسلمين الأوروبيين خصوصاً والغربيين عموماً كانوا حجر الزاوية في أي تحرك مثمر من التعريف الهادئ والهادف برسالة نبينا محمد ﷺ؛ ذلك أنهم الأقدر على مخاطبة شركائهم في الوطن، وإقناعهم بحقيقة الإسلام وما اشتملت عليه شخصية محمد ﷺ من قيم السماحة والرحمة والإحسان إلى الخلق، ومهما

أوتي بعض المسلمين العرب من علم وقدرة ولغة ومهارة، فإن تأثيرهم وإقناعهم يبقى محدوداً بالمقارنة مع المواطن الأوروبي المسلم، الذي هو الأقدر على بناء جسور الحوار المثمر والتعريف النافع بدينه ونبّه ﷺ.

ولوضوح الفائدة المترتبة على إسناد الدور الأكبر في نصرة النبي ﷺ للمواطنين المسلمين في الغرب وتأثير ذلك، فإنني أكتفي بهذه الإشارة الموجزة في هذا السياق.

الفصل الثالث

تجربة عملية:

«البرنامج العالمي للتعريف بنبي الرحمة ﷺ»

نشأ البرنامج العالمي للتعريف بنبي الرحمة ﷺ في أوائل شهر محرم ١٤٢٧ تحت إشراف رابطة العالم الإسلامي؛ ولأنه تجربة عملية في سياق الموقف من التطاول على الثوابت، فسأقدم تعريفاً بهذا البرنامج من خلال بيان أهدافه ومناشطه وإنجازاته. وذلك من خلال أربعة مباحث:

المبحث الأول: أهداف البرنامج

قد أخذ هذا البرنامج على عاتقه تحقيق جملة من الأهداف القريبة والبعيدة، منها على سبيل المثال:

- ١- القيام بجزء من حق النبي ﷺ على أمته.
- ٢- التعريف الفعال بنبي الرحمة ﷺ في العالم أجمع.
- ٣- نصرته النبي ﷺ والذب عنه، ومواجهة حملات التشكيك والتشويه لشخصيته ﷺ.
- ٤- تزويد وسائل الإعلام العالمية بمادة علمية ميسرة باللغات المختلفة حول شخصية محمد ﷺ ورسالته.
- ٥- إتاحة الفرصة لمختلف شرائح المجتمع للمشاركة في شرف نصرته النبي ﷺ.

٦- إبراز جوانب الرحمة والسماحة والعدل والخلق الكريم في شخصية النبي ﷺ.

٧- مساعدة الباحثين عن الحقيقة، المتعطشين للهدى وتزويدهم بما يعرفهم بالحق ويوصلهم إلى الحقيقة.

٨- التأسيس لمشاريع البدء والمبادرة، وليس الدفاع وردة الفعل.

٩- التنسيق بين الجهود الكريمة المبذولة في هذا المجال محلياً ودولياً.

المبحث الثاني: من مناشط البرنامج العالمي للتعريف بنبي الرحمة ﷺ

- ١- إقامة مؤتمر عالمي يعقد في أوروبا حول شخصية نبينا محمد ﷺ وجوانب الرحمة والسماحة وحب الخير للبشرية التي اتصف بها .
- ٢- إقامة مسابقة دولية لأفضل كتاب تعريف بالنبى ﷺ موجه لغير المسلمين .
- ٣- إنشاء موقع عالمي على الإنترنت للتعريف بنبي الرحمة ﷺ.
- ٤- إنتاج مجموعة من البرامج الإعلامية وبرامج تقنيات المعلومات حول شخصية النبي محمد ﷺ وأخلاقه ودعوته .
- ٥- دعم القنوات الفضائية التي تخاطب غير المسلمين .
- ٦- دعم [اللجنة العالمية لنصرة خاتم الأنبياء] في جهودها الهادفة إلى رصد الإساءات التي يتعرض لها النبي ﷺ على الأصعدة المختلفة والتنسيق في ذلك مع كبار علماء الأمة وقادة الرأي والفكر فيها .
- ٧- تأليف وترجمة أفضل الكتب التي تُعرّف بالنبى ﷺ ونشرها بين غير المسلمين .
- ٨- عمل قاعدة بيانات بأسماء وعناوين مجموعة من المؤهلين للحديث أو الكتابة عن شخصية النبي ﷺ لغير المسلمين، ويتم تزويد وسائل الإعلام العالمية بهذه القائمة كما يتم تزويد الجهات الإسلامية المشاركة في الدعوة والإرشاد بهذه القائمة.

المبحث الثالث: من إنجازات البرنامج في عامه الأول

- ١ - الإعلان عن المسابقة العالمية للبرنامج العالمي للتعريف بنبي الرحمة، وموضوعها [مظاهر الرحمة للبشر في شخصية محمد ﷺ] وتبلغ جوائزها (٦٠٠,٠٠٠) ستمائة ألف ريال. بتمويل من المؤسسة الخيرية لمعالي السيد حسن عباس شربتلي رحمه الله.
- ٢ - المشاركة في إنتاج فيلم إعلامي قصير بعنوان "أنا مريم" بالتعاون مع "اللجنة العالمية لنصرة خاتم الأنبياء".
- ٣ - إنتاج ١٠ حلقات تلفزيونية حول تأثير شخصية نبينا محمد ﷺ على بعض من أسلموا حديثاً في أوروبا (باللغتين الألمانية والإنجليزية).
- ٤ - المشاركة في المؤتمر الدولي العشرين لمسلمي أمريكا اللاتينية في سان باولو بالبرازيل تحت شعار: (نظرة الإسلام إلى أنبياء الله)، خلال الفترة من ١ شعبان إلى ٤ شعبان ١٤٢٧هـ.
- ٥ - المشاركة في المؤتمر العالمي عن العالم الإسلامي والغرب (الحوار والجسور) المنعقد بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا خلال الفترة من ١٢ إلى ١٤ شعبان ١٤٢٧هـ.
- ٦ - توقيع عقد إنتاج الموسوعة العالمية الشاملة عن شخصية النبي محمد ﷺ والتي تشمل:
 - أ - موسوعة مكتوبة باللغة العربية حول شخصية النبي ﷺ.
 - ب - إصدار خاص من الموسوعة للطفل (٩ - ١٥) سنة.

ج - إصدار إلكتروني من الموسوعة.

د - عرض تقديمي لعناصر محتوى الموسوعة، مناسب للتقديم في الدورات والمحاضرات.

٧- توقيع عقد بناء وتشغيل الموقع العالمي للتعريف بنبي الرحمة ﷺ باللغات الإنجليزية والفرنسية والعربية .

٨- تنظيم المؤتمر الصحفي العالمي لمعالي الدكتور عبد الله التركي أمين عام رابطة العالم الإسلامي، والمشرف العام على البرنامج، حول تصريحات بابا الفاتيكان المسيئة للإسلام، ونبينا ﷺ، بالمشاركة مع إدارة الإعلام بالرابطة.

٩- إصدار بيان مختصر بعنوان «١٠ أجوبة عن تساؤلات البابا بنديكتس حول ما قدّمه نبينا محمد ﷺ للبشرية» وترجمته إلى اللغات الإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، والصينية، والأردية، ونشرها في مجموعة من الصحف المحلية والعالمية.

١٠- تشكيل ست لجان رئيسية لإدارة البرنامج ومتابعة أعماله:

أ - لجنة المؤتمرات والندوات والوفود.

ب - لجنة المسابقة العالمية للتعريف بنبي الرحمة ﷺ .

ج - لجنة البرامج الإعلامية.

د - لجنة الكتب والدراسات.

هـ - لجنة الموقع العالمي على شبكة الإنترنت.

و- لجنة تنمية الموارد المالية والبشرية.

١١- طباعة وتوزيع الكتب التالية باللغتين العربية والإنجليزية:

- هدي محمد ﷺ في عباداته ومعاملاته وأخلاقه: للدكتور أحمد المزيدي.

- علاقات الكبار محمد ﷺ يقدم أخاه المسيح للبشرية: للدكتور زين العابدين الركابي.

- حاجات البشرية في رسالة النبي محمد ﷺ: إعداد البرنامج العالمي للتعريف بنبي الرحمة ﷺ.

- وباللغة الإنجليزية، كتاب: الرسول العالمي «The Global Messenger» للكاتبة الأمريكية أم محمد (Emily B. Assami).

- مطوية مختصرة بعنوان «١٠ إضاءات حول ما قدمه النبي محمد ﷺ للبشرية» باللغات (العربية، والإنجليزية، والفرنسية، والألمانية): للدكتور عادل الشدي .

١٢- إقامة مؤتمر عالمي بعنوان (أثر معرفة الغربيين للنبي محمد ﷺ في بناء جسور التعايش مع العالم الإسلامي) في الفترة من ٤ - ٥ / ١١ / ١٤٢٧هـ الموافق ٢٥ - ٢٦ / ١١ / ٢٠٠٦م بقاعة إكسل بلندن.

١٣- إقامة المعرض الأول للبرنامج العالمي للتعريف بنبي الرحمة بالتزامن مع المؤتمر العالمي الذي عقده البرنامج في لندن في الفترة من: ٤ - ٥ / ١١ / ١٤٢٧هـ الموافق: ٢٥ - ٢٦ / ١١ / ٢٠٠٦م، بقاعة إكسل بلندن.

١٤- المشاركة في مؤتمر الشباب وبناء المستقبل الذي نظّمته الندوة العالمية للشباب الإسلامي بالقاهرة في الفترة من ٣٠ شوال وحتى ٢ من ذي القعدة ١٤٢٧هـ .

١٥- المشاركة في مؤتمر: نصرة نبي الأمة الذي نظّمته رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة في الفترة من ٥-٧ / ١٢ / ١٤٢٧هـ .

١٦- إقامة معرض مصاحب لمؤتمر نصرة نبي الأمة بمكة المكرمة في الفترة من ٥-٧ / ١٢ / ١٤٢٧هـ .

المبحث الرابع:

مؤتمر: «أثر معرفة النبي ﷺ على العلاقة بين الغرب والعالم الإسلامي»

عقد البرنامج العالمي للتعريف بنبي الرحمة ﷺ مؤتمراً صاحباً معرضاً للكتاب في مدينة لندن عاصمة بريطانيا، في الفترة من: ٤ - ٥ / ١١ / ١٤٢٧هـ الموافق: ٢٥ - ٢٦ / ١١ / ٢٠٠٦م. وقد شهد حضوراً مكثفاً تجاوز الثمانين ألف زائر .

وقد اشتمل المؤتمر على ثلاثة محاور تناولت جملة من البحوث والمحاضرات جاءت على النحو التالي:

المحور الأول: الأنبياء مكانتهم وأثرهم في حياة البشرية .

١- مكانة الأنبياء وصفاتهم وخصائصهم .

٢- النبي محمد ﷺ والعلاقات الإنسانية: تعامله مع (أتباعه، مخالفيه، النساء، الأطفال)، عنايته بالحوار.

٣- أخلاق الأنبياء وشماثلهم: (محمد ﷺ مثلاً): الرحمة، العدل، الوفاء بالعهد، الرفق، التواضع، الصدق .

المحور الثاني: أثر معرفة الغربيين للنبي محمد ﷺ في بناء جسور التعايش مع العالم الإسلامي .

١- الصورة النمطية لدى الغربيين عن النبي محمد ﷺ (حقيقتها، أسبابها، نماذج منها) .

٢- تصحيح الصورة النمطية لدى الغربيين عن النبي محمد ﷺ الوسائل والمقترحات .

٣- التعريف بالنبي محمد ﷺ جسر للتواصل أم حاجز بين الغربيين والعالم الإسلامي .

المحور الثالث: الإساءة إلى الأنبياء وآثارها على التعايش بين أتباع الأديان.

١- مفهوم التعايش بين أتباع الأديان وأهميته .

٢- تطبيقات التعايش في سيرة النبي محمد ﷺ .

٣- حرية التعبير مفهومها وضوابطها .

وقد صدر عن هذا المؤتمر توصيات مهمة، نذكر بعضاً منها:

١. التأكيد على مكانة الأنبياء جميعهم عليهم الصلاة والسلام، ووجوب احترامهم وتقديرهم وعدم التفريق بين أحد منهم وبيان أن

الإساءة إلى أحد منهم هو إساءة لهم جميعاً ووجوب الوقوف أمام هذه الإساءات واستنكارها وتبصير الناس بخطئها وطلب الاعتذار الصريح من صدرت منه الإساءة والالتزام بعدم تكرارها .

٢. الدعوة إلى إبراز القيم والمبادئ والأخلاق التي دعا إليها خاتم الأنبياء النبي محمد ﷺ وطبقها في حياته باعتبار رسالته هي المكملة لرسالات الأنبياء من قبله .

٣. يطلب المؤتمرون من كافة الحكومات والمؤسسات الدينية ومؤسسات المجتمع المدني ووسائل الإعلام والتعبير بكافة أشكالها الالتزام باحترام جميع الأنبياء وعدم الإساءة إلى ذواتهم أو رسالاتهم .

٤. يدعو المشاركون في المؤتمر الهيئات الدولية المعنية إلى إعلان ميثاق دولي ضد الإساءة إلى الأنبياء واعتبار ذلك أمراً مسيئاً دولي والتعاشير بين المجتمعات البشرية يستحق فاعله المحاكمة على أفعاله، ويؤكد على التزام وسائل الإعلام خصوصاً بهذا الميثاق وتحميل من يخرقه المسؤولية القانونية والأخلاقية عن إساءاته .

٥. يدعو المؤتمر المواطنين الأوروبيين المسلمين والجاليات المسلمة في أوروبا إلى بذل المزيد من الجهد المنظم في تعريف المجتمعات التي يعيشون فيها بنبي الرحمة محمد ﷺ وما اتصف به من الرحمة والسماحة وحب الخير للبشر جميعاً وذلك بالتنسيق مع البرنامج العالمي للتعريف بنبي الرحمة .

٦. يوصي المشاركون في المؤتمر البرنامج العالمي للتعريف بنبي الرحمة بإقامة دورات تدريبية تصاحبها ورش عمل متخصصة لائمة المساجد ومسؤولي المراكز الإسلامية في أوروبا حول أفضل وسائل التعريف بنبي الرحمة وسبل نشر هديه القائم على الوسطية والاعتدال والوفاء بالعهود واحترام حقوق الآخرين .

٧. يدعو المؤتمر البرنامج العالمي للتعريف بنبي الرحمة إلى الاستمرار في إقامة المعارض التي تعرف بالنبي محمد ﷺ مع مراعاة تنقلها بين دول أوروبا وذلك بالنظر إلى ما لاحظته المؤتمر من نجاح كبير للمعرض المصاحب للمؤتمر الذي زاره ما يقارب الثمانين ألف زائر خلال يومين

٨. يطالب المؤتمر وسائل الإعلام ولاسيما القنوات الفضائية التي يملكها مسلمون بإنتاج برامج وثائقية تبين حقيقة رسالة النبي محمد ﷺ وموقفه من القضايا الدولية المعاصرة كالإرهاب والاعتداء على الآخرين وحقوق الإنسان عموماً والمرأة خصوصاً

٩. يؤكد المشاركون في المؤتمر على أن حرية التعبير مفتوحة أمام جميع البشر ما دامت ملتزمة بأخلاقيات التعبير التي أكدت عليها الأديان والأنظمة القوانين والآداب المرعية في أنحاء العالم

١٠. بعد اطلاع المؤتمرين على أهداف البرنامج العالمي للتعريف بنبي الرحمة وأنشطته المختلفة أكدوا على أهمية دعم هذا البرنامج لمواصلة نشاطاته التي تخدم السلم والاستقرار في العالم وتؤدي إلى معرفة أفضل

بحقيقة رسالة النبي محمد ﷺ الذي يتبع دينه ما يزيد عن مليار وثلاثمائة مليون من البشر .

ملخص البحث

أختم هذه الورقة بتلخيص أهم ما جاء فيها:

لقد مرّت الأمة الإسلامية - وما زالت - بحالة من العدوان على الثوابت جاححة، تداعت عليها أصوات كثيرة من شعوب غربية مختلفة! فكانت تجربة جديدة نوعاً ما لسرعة انتشار نبئها، ووصوله إلى القاصي والداني بواسطة تكنولوجيا الإعلام المعاصر.

هذه الحالات المؤذية والمنكرة لابدّ فيها من إستراتيجيتين:

الأولى: الوقاية منها قبل وقوعها، والثانية: العلاج لاستئصال مثل هذه الظواهر العدوانية، وللحدّ من سرية العدوان.

وقد كان لموقف الأمة الإسلامية في وجه التطاول على ثوابتها إيجابيات وسلبيات:

الإيجابيات: تمثلت في عودة كثير من المسلمين إلى التمسك بدينهم، والاعتزاز بانتمائهم، والمحافظة على هويتهم، وفي شعور الغرب عموماً والدنمارك على وجه الخصوص بخطورة التعرّض لثوابت المسلمين بالانتقاص، وأن استخدام سلاح المقاطعة الاقتصادية له أثره الفعّال إذا أُحسن استخدامه، كما لوحظ زيادة جهود التعريف بالنبي ﷺ، وأن المسلمين انتقلوا من دائرة الكلام والشجب إلى دائرة الفعل والحركة، وقد أثر هذا الموقف على أكبر منظمة دولية وهي منظمة الأمم المتحدة، ومما يجعل هذا العدوان متهافتاً هو كونه لم يصدر عن علماء أو فلاسفة

أو أدباء مرموقين بل عن أراذل طبقات المجتمعات الغربية في الغالب الأعم، ويُشكر في هذا المضمار موقف مسلمي الغرب الذين كانوا أكثر من تفاعل مع هذه الحملات.

السلبيات: أخطرها غياب المرجعيات الضابطة لتصرفات الشعوب في مثل هذه الأزمات، وتحول المقاطعة إلى غاية لا إستراتيجية لها فبرز فيها مزلقان هما: الغلو والتعدي: على المسلمين أو غيرهم، وتوسيع دائرة المواجهة: في الداخل أو في الخارج.

من السلبيات أيضاً: عدم وجود برامج عملية دائمة لمواجهة التطاول على الرموز الإسلامية، وكذلك بروز التهور والاندفاع والتصرفات غير المنضبطة في سلوك فئات من المسلمين، ومنها: التوجّه للداخل ومخاطبة النفس، وضعف التنسيق أو غيابه كليةً بين المؤسسات الإسلامية العلمية والفكرية والدعوية والخيرية، وعدم وجود مؤسسات قانونية إسلامية للدفاع عن قضايا المسلمين في المحافل الدولية.

وكان لابدّ بعد تقويم موقف الأمة الإسلامية في أزمة التطاول على الثوابت، من تقديم اقتراحات عملية تركز فيها الإيجابيات وتجتنب السلبيات، ومن ذلك: الحاجة إلى برامج دائمة ومستمرّة على أكثر من صعيد: صعيد التخطيط: المناهج، الأهداف، الوسائل، وصعيد الكفاءات العلمية والمالية، وصعيد التنفيذ والمتابعة المستمرة والصارمة.

ويأتي التعريف بالنبي ﷺ في أولويات سلّم النصر، وكذلك تبني إستراتيجية الحوار بين الحضارات، وأخذ زمام المبادرة في مواجهة

التطاول والحيلولة دون ركوب موجة الاستنكار من طرف جهات مشبوهة أو ذات أغراض سياسية وهي ثلاث جهات هي -حسب التبع -: أولاً الغلاة والمتطرفون في طرحهم الفكري، سواء كانوا من التكفيريين، أو من أهل التخريب والتدمير، والاعتيالات، والحكومات التي لها مصالح سياسية من الموقف، قيادات الفرق المبتدعة: الذين يحسنون استغلال مثل هذه الفرص دون أن يفعلوا شيئاً في الواقع، ومن الخطوات العملية كذلك التي يجب أن تتخذ هو: إسناد الدور الأكبر في مواجهة التطاول للمواطنين المسلمين في الغرب لما لذلك من منفعة وتأثير.

من الأمثلة العملية على أوجه النصرة للنبي محمد ﷺ تجربة: «البرنامج العالمي للتعريف بنبي الرحمة ﷺ» الذي يحمل على عاتقه مهمة التعريف بالنبي ﷺ وشخصيته وتعاليمه، وهذا من أعظم أبواب نصرته ﷺ.

د. عادل بن علي الشدي

العام للبرنامج العالمي لنبي الرحمة ﷺ